فلسفة حياة العقاد

الدكتور شوقى رياض أحمد(*)
قسم اللغة العربية — آدا بالقاهرة

عباس العقاد علم من أبرز أعلام نهضتنا الحديثة فى الأدب والفكر، وشخصية فذة لها أثرها البالغ فيما صحب هذه النهضة من تطور ثقافى وفكرى وسياسى ، ونتاجه الغزير فى مجالات الشعر والدراسات الأدبية والاسلامية والكتابة السياسية ، وغير ذلك من مجالات المعرفة ، هو أصدق دليل على عبقريته المتميزة ، فمؤلفاته قد أربت على سبعين مؤلفا ، منها عشرة دواوين شعرية • وقد كان أحد الأعمدة الثلاثة التى قامت عليها مدرسة أدبية شهيرة فى مطلع هذا القرن ، اصطلح على تسميتها بمدرسة « الديوان » ، اذ رفع مع صاحبيه شكرى والمازنى لواء حركة تجديدية فى الشعر ، ترفض أنماطه التقليدية القديمة ، وتقدم مفهوما حديثا مستمدا من شعراء الغرب ، يقوم على التجربة الذاتية والصدق الفنى فى التعبير عن مشاعر النفس وخلجات الوجدان وخطوات الفكر •

عاش العقاد حياة طويلة عريضة ، حافلة بالكفاح ، مليئة بالأحداث ، وخاض الكثير من المعارك الأدبية والفكرية والسياسية ، وكانت له فيها صولات وجولات ، أثبتت صلابته وقوة شخصيته ، وعمق فكره ، ورحابة نفسه ، وثبتت أقدامه عملاقا فى كل ميدان من هذه الميادين • ومثل هذه الحياة الحافلة ، تغرى الباحثين بدراستها ، ومحاولة سبر أغوارها،

(*) استاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها — كلية الآداب جامعة القاهرة .

للوقوف على مقومات فلسفتها ومن هؤلاء الدكتور محمد مندور الذى يرى أن فلسفة حياة العقاد تقوم على مبدأين أساسيين هما : الفردية ، والحرية . (١) ولكننا اذا أمعنا النظر فى حياته وآثاره الأدبية والفكرية بوجه عام ، وفى شعره بوجه خاص ، تبين لنا مبدأ ثالث يمثل أساسا بارزا فى فلسفة حياته ، وهو مبدأ القوة ـ ولعل الدكتور مندور حين أقر مبدأ الفردية عنده ، كان يراه متضمنا مبدأ القوة ، الا أنه من الواضح أن لكل مبدأ منهما مفهومه وخصائصه التى تميزه عن الآخر . وسنرى فيما يلى مدى تمثل كل مبدأ من هذه المبادىء فى حياته وفى أدبه وفكره .

مبدأ القوة :

يتمثل مبدأ القوة بوضوح فى كثير من جوانب حياة العقاد ، فقد عرفنا عنه القوة فى شخصيته وعرفنا عنه القوة فى ارادته ، وبهذه القوة تمكن من مواجهة كل التحديات والصعوبات التى اعترضت طريق حياته ، وتصدى لها فى صلابة لا تلين ولا تستسلم مهما تكبد فى سبيل ذلك من العنت والضير فهو يأخذ نفسه بالشدة والقسوة ، لا يتهاون معها ولايخضع لأهوائها . وذلك واضح فى قوله : « ومن التجارب المكررة عندى أنى كلما ألمت بى نوبة ضعف . وهانت على نفسى ، لا أسترد الرضى عنها ولا أفلح فى تسرية غمتها حتى أوفق الى عمل معنف أجرب به قوتها ، أو رغبة شديدة أروضها على التغلب عليها ، فاذا أفلحت التجربة اطمأننت الى نفسى ورضيت عنها ، كما يطمئن المرتاب فى قوة جسده حين يروض عضلاته بحمل الأثقال ومقاومة الشد والجذب ، كلما كانت الرغبة أشد كان التغلب عليها أفعل فى طرد الشكوك وأدعى الى الغبطة ، وأقمن أن أبيح لنفسى بعدها ماكنت أخشاه عليها فى حالة الضعف والارتياب »(٢)

---

(١) انظر مجلة « المجلة » عدد يوليو سنة ١٩٥٩ .

(٢) انظر مراجعات فى الآداب والفنون للعقاد ص٣١ .

وهذا هو شأن الأقوياء ، فانهم « يشعرون بلذة لا توصف حين يشعرون بأنهم أخضعوا أنفسهم »(٣) ويؤكد العقاد هذا المبدأ بقوله فى شعره (٤):

اذا صـــاحت الأطمـــاع فاصبر فانها
تنـــام اذا طال الصـــياح على النهم
وقهـــر الفتـــى آلامه فيـــه لـــذة
وفى طـــاعة اللـــذات شىء من الألم

هو اذن لايترك لنفسه العنان فتتمادى فى أطماعها وأهوائها ، بل يكبتها حتى يســـكت صيحاتها ، ونداء هواها . لأنه لو أطاعها وانساق فى تيار هواها لكانت النتيجة وخيمة . وهو كذلك يعاملها بهذه الطريقة أذا ما آلمه أمر ، فانه يصبر على هذا الألم ويتجلد له حتى يقهره فيشعر بلذة كبيرة نتيجة انتصاره على الألم ، كما يشعر باللذة أيضا حين يتغلب على الأطماع . وكما يتغلب على نفسه ويقهرها بقوة ارادته وصـــبره وجلده ، يسره كذلك أن يتغلب على حوادث الدهر ومصائبه ، بل هو يتصدى لها ويتحداها لما آنس فى نفســـه من القدرة على التحمـــل والصبر والجلد . فيقول (٥) .

ايه يادهر هات ماشئت وانظر عزمات الرجـــال كيف تكـــون
ما تعســـــفت فى بـــلائك الا هان بالصـــبر منك ما لا يهون

فاذا ظلمه الدهر وغمط حقه ، لا يسكت على هذا الظلم ولايستكين. بل يجهر بالعداء والتحدى ويلعنه ويدوسه بقدمه . يقول(٦) :

اذا الدهر لم يعرف لذى الحق حقه
فللدهـــر منى موطىء النعل والقـــدم

---

(٣) انظر « نيتشه » لدكتور عبد الرحمن بدوى ص٢١٧ .
(٤) انظر ديوان العقاد جـ١ ص٦٨ وديوان من دواوين ص١٧ .
(٥) انظر ديوان العقاد جـ٢ ص٢٣٠ وديوان من دواوين ص٣٠ .
(٦) انظر ديوانه وحى الأربعين ص١٦٨ .

ومن عناصر فلسفة القوة اللازمة ، عنصر المخاطرة ، لأن القوى لا يرضى بالقعود ولا يألف السلامة ، فهو يبحث دائما عن المجد ويسعى الى السيطرة والتسلط ، ويدافع عما رآه الحق دفاع المستميت • فليس من طبيعته أن يعيش آمنا مطمئنا ، وأن يلاقى فى سبيل ذلك الهوان والمذلة • فالمخاطرة فى سبيل المجد أحب الى نفسه وان أصابته من جراء ذلك أشد المصائب يقول[٧] :

هما سبيلان من يبغ السلامة لا ... أو الهوان وقد تشقى ببلواه
ومن بغى الحق فى الدنيا غلا أسف ... وما تفرق قط الهول والجاه
قد يهجر الأمن من ذلوا ومن وهنوا ... على السلامة ان خانته دنياه
فاختر لنفسك اما المجد فى خطر ... يأسف على الحق أو يحلم برؤياه
وما اختيارك الا ما خلقت له ... ان الطبائع ما ترضاه ترضاه

واذا كان العقاد يبين فى هذه الأبيات سبيلين للحياة هما : السلامة والمخاطرة ، ويحدد معالم كل سبيل منهما ، وأن الانسان يختار منهما السبيل الذى يوافق طبيعته • فمعنى ذلك أنه اختار سبيل المخاطرة لأنه الذى وافق طبيعته • ويعود فيؤكد هذا الاختيار مرة أخرى فى هذه الأبيات[٨] :

عش آمن السرب كما تشتهى ... ما نحن ممن يغبط الآمنين
ان حياة الأمن فى شرعنا ... مشنوءة مثل حياة السجين
كلاهما يخفره حارس ... مسدد النظرة فى كل حين
أيتها الأخطار علمتنا ... بأننا الأحرار لو تعلمين

وهذه الفلسفة تفسر لنا كيف عاش العقاد جل حياته فى مغامرة ومخاطرة لايكاد يهدأ ولا يستكين •

واذا ذكرنا فلسفة القوة عند العقاد ، فلا ينبغى أن نغفلها عند

---

(٧) انظر ديوانه وحى الأربعين ص٥٤ .
(٨) انظر ديوان العقاد ج٢ ص٢٠٨ .

نيتشه الفيلسوف الألمانى الذى بنى فلسفته كلها على مبدأ القوة فهو يقول : « حيث توجد حياة ، توجد أيضا ارادة : ارادة قوة لا ارادة حياة» • والخير عنده هو « كل مايعلو فى الانسان بشعور القوة ، وارادة القوة والقوة نفسها » والشر هو « كل ماصدر عن الضعيف » والسعادة هى (الشعور بأن القوة تنمو وتزيد — وبأن مقاومة ما قد قضى عليها)[٩] •

ولما كانت ارادة القوة لايمكن أن تظهر الا بواسطة الكفاح ، فانها تبحث دائما عن كل مايقاومها • ولما كانت المقاومة صدا ووقوفا فى وجه الشىء المقاوم ، أى معاكسة بمعنى عام ، فانها تستلزم بالضرورة الألم • فكأن ارادة القوة أى الحياة والألم لاينفصلان : ان ارادة القوة تنزع نحو المقاومات ونحو الألم • وفى جوهر كل حياة عضوية ارادة ألم[١٠] • والحياة فى حاجة ضرورية الى الاستشهاد والمعارضة ، ولا غنى لها مطلقا عن الخصومة والعداوة وكلما كثرت المقاومة ، واشتدت الخصومة زادت قيمة الحياة ، وأصبحت ارادة القوة أكبر ثروة وأعظم خصبا

فالحياة التى تريد أن تعلو ، والارادة التى تريد أن تتحقق فى صور أجل وأعلى ، لابد لها من أن تحرص على طلب المقاومات بنفسها ، وأن تستثير الخصومات وألوان النضال طائعة مختارة ، وأن تخلق لنفسها حالة توتر دائم ، سواء أكان هذا بينها وبين نفسها ، أم بينها وبين الأشياء الخارجة عنها • فالحياة السامية حياة تتشد الخطر وتلح فى طلبه ، ولا يستطيع أن تتصور وجودها دون تصوره محفوفا بالأخطار ، محاصرا بالتهديدات ، مضغوطا عليه ، ومسورا بالمقاومات • فكأن ارادة القوة هى فى الوقت نفسه « ارادة الخطر » أن يجعل الانسان حياته فى خطر : هذا هو نتيجة ارادة فياضة سخية ، لأن كل خطر كبير يستثير حبنا للاستطلاع بنسبة مالدينا من قوة وشجاعة • ومن أجل هذا يقول نيتشه هذه العبارة الرائعة التى لا أكاد أجد عبارة أخرى تفوقها أو

---

(٩) انظر « نيتشه » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٢٠٥

(١٠) المصدر السابق .

تدانيها ، والتى يجب أن يخلص منها كل انسان نظريته فى الوجود وسلوكه فى الحياة « كى تجنى من الوجود أعظم الثمار وتنعم بما فيه ، عش فى خطـــر »[11] .

هذه الفلسفة تنطبق على حياة العقاد الى حد بعيد كما رأينا ، وكأنما خـــلق العقاد ليكون مثلا لها . فارادة القوة ، والكفاح ، واســـتثارة الخصومات ، والمخاطرة ، والألم ، والتوتر الدائم ، والنضال . كل هذه العناصر تمثلت فى حياة العقاد ، وكأنما نسجت حياته من خيوطها .

وحين نبحث عند العقاد عن شواهد أخرى تؤكد اعتناقه لفلسفة القوة نجد الكثير ، فالقوى يسعى دائما الى التسلط والسيطرة ، لا يحســـب للضعفاء حسابا ولا تأخذه بهم رأفة ، فهو يظلم ويطغى لكى يحقق ما يريد . وقد تعودنا أن نصف مثل هذا بالظلم والقســـوة ، وأن ننكر فعاله تلك ولا نقبلها . ولكن العقاد يدعونا الى انصاف الظالم كما ننصف المظلوم ، فللظالم عذره ، وعذره فى ذلة المظلوم الذى رضى بعدوانه وظلمه ، واستسلم لغلبته وسيطرته . ولو أنه قاومه لما كان لظلمه وجود . أما وقد ضعف واستكان ورضى بالذلة والهوان ، فهو يستحق أن يظلم وأن يضار . ولم يخطىء ظالمه فيما فعل وانما حقق هدفه وسيطرته وقوته . هـــذا ما يعنيه العقاد بقوله [12] :

أنصفت مظـــلوما فأنصف ظالما ... فى ذلة المظـــلوم عذر الظـــالم
من يرض عـــدوانا عليه يضيره ... شر من العـــادى عليه الغـــانم

ويثبت العقاد وجود مبـــدأ القوة فى « قانون العظماء » الذين يسيرون فى طريق مجدهم لا يحفلون بمن يقف فى طريقهم ، ولا يهمهم أن يظلموا ويدوسوا رءوس الورى ، لأنهم يحققون أمجادا ومعالى أكبر

---

(١١) انظر « نيتشه » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٢٠٩ .
(١٢) انظر ديوان من دواوين ص٢٢ ووحى الأربعين ص٤٧ .

من هذه الرءوس الصغيرة والنفوس الضائعة • فحين تريد محاسبتهم ينبغى أن تنظر أولا الى ماحققوا من أمجاد ، وما وصلوا اليه من عظمة ، وأن تعذرهم فيما فعلوه من أخطاء أو مظالم • هذه هى مواد قانون العظماء عند العقاد يقول[١٣] :

لا تلح ذا بأس وذا همة ... على ذنوب العصبة الغلب
فليس مقياسك مقياسهم ... ولا هم مثلك فى المأرب
والليث لا توثق أعضاءه ... حبالة تنصب للثعلب
انظر الى ما خلفوا بعدهم ... من المعالى ثم لم واعتب
لم يخط أن داس رءوس الورى ... من علقت كفاه بالكوكب
من ركب الهائل من أمره ... فعذره فى ذلك المركب

وهذا مايراه أيضا نيتشه ، من أن الحياة ارادة استيلاء على الآخرين ، وارادة سطو واستغلال وطابعها المميز هو الاغتصاب وهضم ما للآخرين »[١٤] وارادة القوة هى مقياس القيم فى الحياة فتحديد المستوى وتعيين الطبقات ، كل هذا تفصل فيه ارادة القوة • وليس فى الحياة شىء ذو قيمة غير درجة القوة « والقيمة هى أكبر مقدار من القوة يستطيع الانسان أن يحصله ويستولى عليه »[١٥] •

وارادة القوة أو فلسفة القوة تعين وجود الأقوياء والضعفاء • فالأقوياء هم الممتازون الذين تكون لهم الغلبة والسيطرة ، وتكون لهم المكانة الأولى والمنزلة السامية فى المجتمع • ولا ينبغى اذن أن نساويهم

---

(١٣) أنظر ديوان من دواوين للعقاد ص٢٦ والجزء الأول من ديوان العقاد .

(١٤) أنظر « نيتشه » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٢٠٧ .

(١٥) أنظر « نيتشه » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص٢١٥ .

بالضعفاء الأدنين ، الذين ليس لهم من القوة والامتياز ما للأقوياء الممتازين هذا مايراه فى قوله [١٦] :

انا نريد اذا ما الظلم حاق بنـــا عدل الأناسى لا عدل المـــوازين
عدل الموازين ظلم حين تنصبها على المساواة بين الحر والدون
ما فرقت كفـــة الميزان أو عدلت بين الحلى وأحجـــار الطواحين

وهو ماذهب اليه نيتشه فى تفريقه بين أخلاق السادة وأخـــلاق العبيد ، أى الأخلاق التى كان مصدرها الممتازون من الانسانية ، والأخلاق التى كان مصدرها رعاعها والطبقات المنحطة فيها[١٧] .

وقد لاحظ العقاد[١٨] . تقارب رأى نيتشه هذا مع رأى المتنبى فى قـــوله :

العبـــد ليس لحر صـــالح بأخ لو انه فى ثيـــاب الحر مولود

وقولـــه :

وما فى ســـطوة الأرباب عيب وما فـــى ذلـــة العبـــدان عـــار

وتتجلى فلســـفة القوة عند العقاد كذلك فى اختياره أو فى تفضيله واعجابه بالشخصيات القوية سواء فيمن اتصل بهم فى حياته أو فيمن قرأ عنهم أو لهم فى التاريخ والأدب .

فكان اتصاله بســـــعد زغلول نتيجة اعجاب بقوة شـــــخصيته وشجاعته ، التى أقر بها أصحابه من المصريين ، وأعداؤه من الانجليز وعلى رأسهم اللورد كرومر مندوبهم الحاكم فى مصر[١٩] .

---

(١٦) انظر ديوان من دواوين للعقاد ص١٢ ووحى الأربعين ص٤٣ .
(١٧) انظر « نيتشـه » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص١٦٣ ومابعدها .
(١٨) انظر مطالعات فى الكتب والحياة للعقاد ص١٦١ .
(١٩) انظر تعليق العقاد على خطبة وداع اللورد كرومر لمصر فى كتابه « سعد زغلول سيرة وتحية » ص٣٦ .

وكان الاعجاب متبادلا بين سعد والعقاد للسبب نفسه ، وهو القوة فى الشخصية وفى النفس وفى الحجة • وكان أن لقبه سعد بلقب عزيز على نفسه فدعاه « جبار المنطق » ولذا ذكر هذا اللقب فى رثائه لسعد ، معتزا به يقول [٢٠] :

أنـــا جبـــارك لا تعهدنى ذلك الجبار فى الدمع السخين

وكان العقاد بالنسبة لسعد ولحزب الوفد هو المدافع الأول بقلمه ومقالاته النارية التى كانت عاملا قويا فى اذكاء روح الثورة الوطنيـــة فى مصر •

وكذلك كان اعجاب العقاد بعمر بن الخطاب ، من دواعى فلسفة القوة ، وعمر هو الشخصية القوية الفذة فى التاريخ الاسلامى • وهو لذلك أحب الشـــخصيات الى نفس العقاد وأقربها الى قلبه • وقد كتب عن عبقريته أروع ماكتب فى العبقريات على الاطلاق • وقد سمعت العقاد يكرر هذا التفضـــل لعمر ولعبقريته مرارا •

واعجـــاب العقاد بالنـــاقد الانجليزى « هازليت » يمكن رده الى اسلوبه فى النقد ، والذى يتسم بالعنف والشدة والقسوة فى الهجوم على الأدباء • تلك الطريقة هى التى جذبت اليه العقاد فطبقها فى نقده لشوقى ولغيره من الشعراء • ونذكر هنا ماقاله بعض الكتاب الانجليز عن هازليت لنؤكد هذه الحقيقة فان « دى كوينسى » يرى أن هازليت وضع نفسه فى معارضة قوية مع كل ماهو نافع تحت الشمس فى هـــذا العالم ، ومع كل الشخصيات القوية ذات السيطرة فى انجلترا ، وهذا هو السبب فى أنه كان مكروها[٢١] • ويقول عنه « أوجستين بيريل » :

« وغايته ليست فى الحقيقة انصاف المؤلف الذى يعامله باحترام

---

(٢٠) انظر ديوان العقـــاد ج٤ ص٢٩١ .

(21) willam Hazlitt. by Augustin Birrell. P. 214.

ضئيل جدا ، وانما غايته أن يمدح نفسه ويظهر معرفته لكل موضوعات النقد ومصادره »[٢٢] .

من هذه الآراء نرى الى أى حد كان هازليت عنيفا قاسيا فى نقده ، وهذا هو سر اعجاب العقاد به ، لأن العنف يلائم طبيعته وفلسفته ، فهو عنصر هام من عناصر فلسفة القوة التى طبعت بها حياة العقاد .

ومن كل ماسبق يمكننا أن نتبين بوضوح مبدأ القوة فى فلسفة حياة العقاد . والى أى مدى طبعت به حياته وتفكيره وأدبه وشعره .

مبدأ الفردية :

واذا تناولنا مبدأ الفردية فى فلسفة حياة العقاد وجدناه ظاهرا بينا، وهذا المبدأ يتلاءم مع مفهومه لمبدأ القوة الى حد كبير ، فكل منهما مكمل للآخر ، وان تمايزت خصائصهما ، والنزعة الفردية عند العقاد تقوم أساسا على شعور قوى فى نفسه بالعظمة والعبقرية واعتداد كبير بالذات يصل الى حد الكبرياء والغرور ، فهو حين يضع نفسه فى فئة الممتازين من الناس ، ويرى فى نفسه من المزايا ومن صفات العبقرية ماقل أن يوجد مثله فى البشر ، ويزيد على ذلك فيجعل نفسه فوق كل الأدباء والعباقرة ، ولايرضى الا بما يمجده ويرفعه ويعلى شأنه، يكون مثلا صادقا للفلسفة الفردية . وهذا قوله عن نفسه يؤكد ذلك[٢٣] :

أنا حاطم الأصنام والقبب ... ألحقت منها الرأس بالذنب
فى أمة الألقاب أسبقهم ... سعيا بلا نعت ولا لقب
فى أمة الأموال أتركهم ... بعدى بلا مال ولا نشب
فى أمة الأنساب أنشىء لى ... نسبا من العلياء والأدب

---

(22) willam Hazlitt. by Augustin Birrell. P. 298.

(٢٣) انظر ديوان من دواوين ص٣١٧ .

ففى قوله هذا تتضح الفردية المرتفعة المتعالية التى تذكرنا بالمتنبى وهى فردية تعززها القوة وتزيدها حدة ، فتجعله يحتقر أرضا لا يعمرها مثله من الممتازين الأفذاذ • يقول[٢٤] •

انى لأصغر أرضا ليس يعمرها من الخلائق أندادى وأمثالى

وتتضح هذه الفردية كذلك فى اعتماده على نفسه ، واستغنائه عن الناس فهو لا ينتظر منهم خيرا ، لأنه لايفتقر الى خيرهم ، ولا يخيفه منهم شر لأنه قد آمن شرهم بالعبد عنهم ، أو عدم الاهتمام بهم وبشرهم • يقول[٢٥] •

أنا لم أيأس من الخير ولا أحسب الشر على الناس لزاما
أنا أغنيت يدى عن خيرهم وأمنت الشر من حيث ترامى
فليكن من شاء منهم ملكا أو يكن جنا على الكيد أقاما
كلهم بعد سواء عند من لا يدين الناس حمدا وانتقاما

ويقول فى مقال له « وايمانى فى المعاملات أن الطيبة موجودة فى الطبيعة الانسانية ، ولكنك لاتجدها فى كل انسان ، ولاتجدها فى جميع الأوقات •• فلا تقنط من طيبة الناس كل القنوط ، ولا تعول عليها كل التعويل ، بل أحسن الظن بالناس كأنهم كلهم خير واعتمد على نفسك كأنه لا خير فى الناس وقديما قلت :

أنا لا ألوم ولا ألام حسبى من الناس السلام
أنا ان غنيت عن الأنا م ، فقد غنيت عن الملام
واذا افتقرت اليهم فاللوم من لغو الكلام

---

(٢٤) انظر ديوان العقاد ص١٢٣ .
(٢٥) انظر ديوانه بعد الاعاصير ص٢٢ وديوان من دواوين ص١٤ .

ولا أزال كلما نسيت هذه الخطة فى سهوة من السهوات ردتنى الحوادث اليها وزادتنى ايمانا بها »[٣٦] .

وفى كلام العقاد هذا يظهر عنصران هامان هما : الفردية والمسالمة، والفردية مبدأ مسلم به فى فلسفة حياة العقاد ، أما المسالمة فهى التى تحتاج الى مناقشة ، لأنها تتعارض مع ما لاحظناه عنده فى فلسفة القوة، فماذا يعنى العقاد بمسالمة الناس ؟ انه يعنى ألا يتعرض الناس له ولا يقفوا فى طريقه ، ولايعارضوا آراءه ، بل يقبلوها دون مناقشة ، فهم ليسوا مثله فى الذكاء والعبقرية ، حتى يمكنهم أن يفكروا كما يفكر ، أو يفهموا كما يفهم . فاذا لم يتعاملوا معه بهذه الطريقة فالويل لهم ، واذا لاح لأحدهم أن يستخف به أو يهاجمه ، فقد فتح على نفسه بابا من العداء الحاد لايمكن اغلاقه الا اذا سكت واستسلم ، وهذا ما يعنيه العقاد بقوله فى مقال له « انى أحب مسالمة الناس جهدى ولا أستبيح لنفسى أن أبدأهم بما يسوء . ولكنى لاأبيح لأحد أن يستخف بالاساءة الى ، ولاسيما الاساءة التى على اعتزاز بقوة لاتدفع ، واعتزاز بطغيان تعنو له الجباه ، فمثل هذا المسىء لا أدعه فى طغيانه دون أن يندم عليه »[٣٧] .

فالمسالمة التى يريدها العقاد من الناس هى الاستسلام وعدم المعارضة لما يقول أو يفعل — انها اذن مسالمة لا تتعارض مع مبدأ القوة بل توافقه وتؤكده — وهى مسالمة تقوم على التسليم للعقاد بالتفوق والامتياز وتعترف له بالسبق والعبقرية وبذا تؤكد فلسفة الفردية عنده .

وقد عرف النقاد والأدباء هذه النزعة عند العقاد ، فكتبوا عنها كثيرا،

---

(٢٦) انظر مجلة الهلال عد يناير سنة ١٩٤٧ من مقال للاستاذ العقاد وانظر الأبيات فى ديوان العقاد جـ١ ص١٢٠ .

(٢٧) انظر مجلة الرسالة ١٣ يناير سنة ١٩٤١ من مقال للاستاذ العقاد

نذكر منها ماكتبه محمود الخولى يقول « يعجب العقاد من احجام معظم الأدباء البارزين عن نقـد كتبه ، ولا أرى محـلا للعجب ، لأن العقاد لا يرضيه ما هو أقل من التقديس ، واذ شاء أن ينصفه أى ناقد مستقل ، لم يكن جزاؤه غير لطمة منه ، ناسبا اطلاع ناقده وتدقيقه الى الجهل والتحامل • فالعقاد نفسه مسئول عن هذه الحالة كما أنه مسـئول عن المقالات السـخيفة التى تشيد بعبقريته الجبارة وبنحو ذلك من التهريج ••• وهو رجل له خطره وفضله • ولولا طباعه الشاذة وغروره المتناهى لا نتفع به الأدب انتفاعا أتم ، ولكن الغرض والأنانية ممـا يفسد آراءه وأحكامه[٢٨] •

وقد سببت له هذه النزعةالفردية كثيرا من العداوات والخصومات، واحتدمت المعارك بينه وبين خصومه حامية الوطيس ، سواء فى الأدب أو فى السياسة • وهذا ماذكره الدكتور مندور عنه فقال « والعقاد من أولئك النفر القليل ، الذين يصح أن يقال فيهم مثلما قيل فى المتنبى ، من أنه قد ملأ الدنيا وشغل الناس ، وأثار الصداقات والعداوات ، وخاض المعارك فى شجاعة وصلابة ، وان يكن خصامه قد أرث له من العداوات ما أضعف من قوة تأثيره فى عصره ، وضيق من رقعة ذلـك التأثير وبخاصة فى خصوماته التى لاتقوم حول قضايا أدبية أو ثقافية بل حول آراء أو مذاهب سياسية[٢٩] •

ومن عناصر الفردية اعتزال الناس وتجنبهم ، وقد لزمت العقاد عادة حب العزلة منذ صغره لميله الشديد الى المطالعة ، وعلى مر الأيام تأصل ذلك فيه فصارت حياته حياة مكتبية محضة ، وقد أبى على نفسه

---

(٢٨) انظر مجلة ابولو — ابريل — سنة ١٩٣٣ ص٩١٣ — ٩١٥ .

(٢٩) انظر مجلة « المجلة » عدد يوليو سنة ١٩٥٩ مقال للدكتور محمد مندور .

أن يشوبها ما يخرجه عن تلك الوحـــدة ، فعاش فردا فى صومعة القرائح والعقول ... [٣٠] ..

وقد أحب العقاد القراءة كما يقول « لأنها هى التى تعطيه دون غيرها أكثر من حياة واحدة فى عمر الانسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وان كانت لاتطيلها بمقادير الحساب ... لا أحب الكتب لأنى زاهـــد فى الحياة ، ولكنـــى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى ؟؟ [٣١] ...

وكان من عوامل أو من نتائج فلسفته الفردية عزوفه عن الزواج ، فمشاركة المرأة له فى حياته أمر لاتطيقه طبيعته ولا تتحمله نفسه . وليس هذا لرأيه فى المرأة المعروف بعنفه ، اذ أن المرأة لها فى حيـــاته نصيب كبير كما يشهد بذلك شعره الغزلى . ولكن ذلك كما قلت لميلـــه الى العزلة والانفراد فهو اذا قبل المرأة حبيبة وعاشقة لايمكن أن يقبلها زوجة تشاركه جميع حياته . وهو يذكر رأيه فى الزواج فيقول « لو كنت فى الريف ، أو كانت صناعتى غير الأدب لتزوجت . ولكننى الآن لا أستطيع الزواج لأننى أوطن نفسى دائما على أن أواجه كل نوع من أنواع المعيشة ، وأجازف بكل شىء ، ولا أبالى بالمستقبل »[٣٢] .

وقد ذكر رأيه هذا سنة ١٩٣٥ . أى فى فترة كان يحتدم فيهـــا نضاله الســـياسى ، وكذلك كانت حياته قبلها وبعدها ، حياة مجازفة كما يقول ليس فيها ضمان ولا استقرار ولا مبالاة بمســـتقبل . ومن ثم لم يكن يمكنه أن يتحمل عبء زوجة وبيت وأسرة . فآثر أن يبقى فردا ، وألا يحمل أحدا معه عبء حياته الشاقة التى قد لاتحتملها زوجة . على أن

---

(٣٠) أنظر « ملامح وغضون » للاستاذ محمود تيمور ص١٠٣ طبعة أولى ســـنة ١٩٥٠ .

(٣١) انظر مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٤٨ من مقال للاستاذ العقاد

(٣٢) انظر مجلة « كل شىء » عدد اغسطس سنة ١٩٣٥ من مقـــال للأســـتاذ العقـــاد .

عدم زواجه لايرجع الى العوامل التى ذكرناها فحسب ، ولكنه يرجع الى فلسفة أعمق من ذلك ، يوضحها العقاد فى حديثه عن عدم زواج العباقرة بصفته واحدا منهم فيقول : « ان للنوع فرضا عاما يطلبه من جميع أفراده هو التكاثر بالتوالد بيد أنه كلما سفل النوع ، وسفل الفرد كان التوالد أكثر • ويطرد هذا الأمر فى الانسان ، فان أكثر الناس توالدا هم أعجزهم عن حفظ النوع بغير وسيلة التوالد ، وهم أحط الناس مدارك وعقولا ، ثم ينشأ فى بعض الأفراد قوى أدبية ينفعون بها النوع ويحفظونه من جهات شتى ، فتعدو هذه القوى على غريزة النسل، حتى يبلغ الأمر نهايته فى النابغة فيكون أنفع الناس لنوعه بقواه الأدبية، وأقلهم نفعا له بنسله ، ولذلك لايرغب النابغون فى الزواج وان تزوجوا لايلدون ، وان ولدوا لايعيش أبناؤهم ، أو يعيشون ولكنهم يهملون فى الغالب تربيتهم وانباتهم ، وتلك لعمرى حكمة بالغة ، وسر دقيق من أسرار الاقتصاد الطبيعى فى تقسيم العمل ، ولكنه لايظهر الا على حساب النوابغ والعبقريين ، الذين يفجعهم هذا التقسيم فى صحة أبدانهم وطمأنينة بيوتهم ، فلا يهنأون بنعمة الصحة وسعادة الأسرة كما يهنأ بها سائر الناس »(٣٣) •

وليس هنا مجال مناقشة هذا الرأى من حيث صوابه أو خطؤه ، وانما نذكره لنتبين منه فلسفة العقاد فى حياته من ناحية نظرته الى الزواج • وسواء أكان هذا الرأى صوابا أو خطأ ، فانه يؤكد ناحية هامة ، وهى اقتناع العقاد بعبقريته ، وايمانه بفلسفته الفردية ، فهو لم يتزوج لأنه من هؤلاء العباقرة الأفذاذ ، أو لأن عدم زواجه دليل على عبقريته ونبوغه •

من كل ماذكرنا يمكننا أن نتبين مبدأ الفردية فى فلسفة حياة

---

(٣٣) انظر مطالعات فى الكتب والحياة للعقاد ص٢٨٥ ومقدمة ديوان المازنى للعقاد ..

العقاد • وكيف أنه متمم لمبدأ القوة • ثم يأتى مبدأ الحرية فيكملهما ، ويكون معهما وحدة فلسفية لحياة العقاد •

مبدأ الحرية :

ويتمثل مبدأ الحرية كذلك فى حياة العقاد وفكره وشعره تمثلا بينا ، وأشد مايظهر هذا المبدأ ثورته الأدبية على القديم ودعوته الى التجديد مع زميليه شكرى والمازنى ، فى وقت كان يعتبر فيه الخروج على الشعر التقليدى ضربا من الكفر • ومع ذلك فقد حملوا مشعل الدعوة فى قوة وجرأة وحرية ، غير مبالين بما يعترضهم من هجوم واضطهاد وازدراء ، ولا شك أن العقاد كان أشد هؤلاء الثلاثة ثورة وعنفا • والى جانب ثورته الأدبية كانت ثورته الوطنية فخاض ميدان السياسة بقلمه ، وشارك فى معاركها مشاركة فعالة ، ووقف الى جانب زعيمه « سعد زغلول » مناديا بالحرية والاستقلال لبلاده من ربقة الاحتلال الانجليزى سنة ١٩١٩م وما بعدها • ويعده زكى نجيب محمود « شاعر الحركة الثورية »[٣٤] مع أن شعره فيها قليل بالنسبة الى مجموع شعره •

ويدافع زكى نجيب محمود عن هذه القضية فيقول : « وهنا يجب أن نلقى أهمية على الحقيقة فى أن الشاعر الذى تدفعه الاضطهادات السياسية ، لايحتاج أن يسجل فى شعره الحوادث السياسية الجارية فى صراحة ووضوح • وفى الحقيقة أنه قد لايذكر كلمة واحدة عن الثورة التى تلهمه ، بالرغم من أننا قد ندعى أنه شاعر الحركة الثورية »[٣٥] •

ويدعم زكى نجيب محمود رأيه هذا بأمثلة لبعض الشعراء الانجليز كملتون فى الفردوس المفقود ، فلا يمكن أن نقرأ سطورا قليلة منها

---

(34) Modernt Egyptian Throught and Al Akkad the poet. by Zaki Naguib Mahmoud. p. 18.

(٣٥) المصدر السابق ص١٨ •

بدون أن نجد أثرا للانفعال الثورى بحركة « كروميل » فى الصراع المخيف بين الاله والشيطان • وكذلك الشاعر « وردزورث » الذى تأثر تأثرا عميقا بالثورة الفرنسية ومع ذلك كان عمله السياسى محدودا جدا ، ولكنه عندما حطم الحواجز التى تسمى بالعبارات الشعرية ، أو عندما شغل نفسه بالأشياء العامة والتافهة كمادة أدبية كان بذلك شاعرا ثائرا • وبهذه الكيفية يكون العقاد والكتاب المصريون المحدثون ثوريين يستلهمون المناداة بالحرية السياسية • وبدلا من أن يكون شاعرا من الفئة القديمة ، يربط نفسه بمدح ملك أو بالكتابة فى رثاء أمير عظيم بعد موته ، فالعقاد هو الفم الناطق بالحرية أو بالتحرر من مثل هذه التمرينات الخاضعة الذليلة • وهو حين يرثى كلبه « بيجو » أو يخاطب حبيبته فى قصيدة « الصدار » الذى أهدته اليه • تظهر حريته فى اختيار الموضوع وصدق الشعور • فهو لايكتب الشعر لأن مثله الاجتماعى ــ كشاعر ــ يضطره أن يغنى لسرور الحاكم كما كان معتادا فى الماضى • فالعقاد يكتب ليعبر عن مشاعره الشخصية ولذلك نقدمه مرة أخرى كشاعر الحرية »[٣٦] •

وفى سبيل هذه الحرية ، ولانغماس العقاد فى الثورة السياسية ، لاقى كثيرا من الاضطهاد والعنت ، وكان نتيجة ذلك أن سجن سنة ١٩٣٠ لمهاجمته الملك فؤاد • فلما خرج من السجن توجه الى ضريح « سعد زغلول » الذى يعتبره قبلة الأحرار فى الشرق ، وأنشد قصيدته المشهورة « على ضريح سعد زغلول » وفيها يعتز بحريته وحبه لها وتمسكه بها رغم الاضطهاد ، فيقول منها[٣٧] :

وأعظم بهـا حـرية زيد قدرها لدن فقدت أوقيل فى السجن تفقد
عرفت لها الحبين فى النفس والحمى
وكان لها حب ــ وان جل ــ مفـرد

---

(٣٦) المصـدر السـابق ص١٨ ــ ١٩ .
(٣٧) انظر « وحى الأربعين » للعقاد ص١٧٤ .

وهنا تلتقى فلسفة الحرية بفلسفة القوة ، فهو قوى لا يتهاون فى حريته ، وهو مخاطر ثائر يخوض المعارك ويهاجم الحكام وهم فى أوج سلطانهم من أجل هذه الحرية • وهذه الأخطار تقوى مبدأ الحرية وتزيده فى نفسه نضجا • يقول [٣٨] :

أيتهـا الأخطـار علمتنـا بأننـا الأحرار لو تعلمين

وترتكز فكرة الحرية عند العقاد على فلسفة عميقة أساسـها تذوق الجمال فى جميع أشكاله ، فالجمال عنده هو الحرية ، ومن يتذوق الجمال يكون فاهما للحرية فى أسمى معانيها • هذه الفكرة التى تبدو غريبة لأول وهلة ، يفلسـفها العقاد ، فيرجع كل جمال فى الجسم البشرى وفى الفن على السواء الى الحرية « فكلما كانت وظائف الحياة ظاهرة غير معاقة فى حركتها كانت الأعضاء صحيحة حسنة الأداء وكان عمل الحياة بها سهلا وحريتها فيها أكمل • وكلما كان العضو سهلا لعمل الحياة كان مؤديا لغرضه موضوعا فى موضعه ، وكان مبرءا من النقص والعيب ، فهو العضو الذى يجاوب مطالب الحياة ويحقق لها حريتها ، وهـو العضو الجميل ••• والجمال هو التناسب ، ومتى يكون الجسم متناسبا فنراه جميلا ؟ • ان التناسب هو أن لايزيد عضو أو ينقص فى الحجـم والشكل ، فلا يكون أضخم ولا أنحف ولا أطول ولا أقصر ، ولا مختلفا فى التركيب واللون عما ينبغى ••• ان الجسم الجميل هو الجسـم الحر ، وما من حسناء الا وهى تعلم ذلك بفطرتها ، فلا تعدل بالرشاقة صفات الملاحة ، وليست الرشاقة الا خفة الحركة ، وليست خفة الحركة الا الدليل على أن وظائف الحياة حرة فى جسدها تخطر وتلتفت وتشـير وتختال بلا كلفة ولا معاناة ••• فالجمال اذن هو الحرية • والجمـال فى الجسـم الانسانى هو حرية وظائف الحياة فيه وسهولة مجراهـا

---

(٣٨) أنظر ديوان العقـاد ج٢ ص٢٠٨ •

ومطاوعة أعضاء الجسم لأغراضها ، وقيام هذه الأعضاء مقام الأدوات الملبية لكل اشارة من اشاراتها »(٣٩) .

وهو على أساس الحرية يبنى وحدة الفكرة فى الحياة والفن فيقول : « ان الحرية فى رأيى هى العنصر الذى لايخلو منه جمال فى عالم الحياة أو فى عالم الفنون ، وأننا مهما نبحث عن مزية نتفاضل بها مراتب الجمال فى الحياة ، لانجد الا مزية حرية الاختيار ، التى يفضل بها الانسان الكامل من دونه من الموجودين فى صفات النفوس وسمات الأجسام ، ثم يفضل بها الناس عامة الأحياء ، ثم يفضل بها الأحياء طبقات النبات ، ثم يفضل بها النبات الأشياء الجامدة ، أو المادة الصماء »(٤٠)

فالحرية عند العقاد تأتى أولا فى تذوق الجمال وحبه . وتبعا لذلك تأتى الحرية السياسية وجميع الحريات الأخرى . فلماذا لا نقف اذن عند جميع الأشكال المختلفة للجمال لنجذب انتباه الناس ونعلمهم ماينبغى تقديره واستحسانه ؟ (٤١) . اننا بذلك نعلمهم الحرية الحقة فى أسمى معانيها ، ونرتقى بمشاعرهم ومداركهم الى الدرجة التى تمكن الانسان من ممارسة حريته ، وفهمها فهما سليما يرقى به الى أسمى درجات الانسانية .

هذا هو فهم العقاد للحرية . وعلى أساس هذا الفهم كانت الحرية مبدأ هاما فى فلسفة حياته ، يكون مع مبدأى القوة والفردية وحدة كاملة لفلسفة حياة العقاد .

---

(٣٩) انظر مطالعات فى الكتب ومحياة للعقاد مقال فلسفة الجمال والحب ص ٢٥٠ .

(٣٩) انظر مطالعات فى الكتب والحياة للعقاد مقال فلسفة الجمال الحياة والفن » .

41) Modern Egyptian Thought and Al Akkad the poet by Zaki Naguib Mahmoud, p. 24.

بين التشـــاؤم والاعتدال :

بعد أن درسنا المبادىء التى قامت عليها فلسفة حياة العقاد ، ينبغى ألا نغفل بعض الظواهر الهامة فى حياته ، تلك التى كان لها أثر — الى حد ما — فى نظرته الى الحياة ، ولو كان ذلك فى فترة من فترات عمره •

فحين نقرأ شعر العقاد فى دواوينه الأولى ، نحس بلفحة من الألم والضيق بالحياة ، ونرى نظرته اليها نظرة تشاؤمية سوداء فيها سخط على الوجود والعيش • نذكر منها على سبيل المثال قوله من قصـــــيدة « نفثة »[٤٢] :

ظمآن ظمان لا صوب الغمام ولا ... عذب المدام ولا الأنداء ترويني
حيران حيران لا نجم السماء ولا ... معالم الأرض فى الغماء تهديني
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدا ... ثيني ولا سمر الســـمار يلهيني
غصان غصان لا الأوجاع تبلينى ... ولا الكوارث والأشجان تبكيني
شعرى دموعى وما بالشعر من عوض
عن الدمـــوع نفـــاها جفن محـــزون

وهكذا يمضى شاكيا متشائما ضائقا بالحياة ، الى أن يتمنى الموت ليخلصه من هذا العذاب •

يديك فامحضنى ياموت فى كبدى ... فلست تمحوه الا حين تمحونى

هذه النظرة السوداوية المتشائمة نجدها فى كثير من قصـــــائده الأولى مثل قصيدة « سلوى » و « أتعلم أيها الليل » و « نحن وزماننا » و « ثورة النفس » وغيرها •

وتذكرنا هذه النظرة بتشاؤم المعرى • وهو من الشعراء المفضلين عند العقاد ، الذين قرأ لهم كثيرا وتأثر بهم الى حد بعيد • ولعله قد

---

(٤٢) انظر ديوان العقاد جـ٢ ص١٩٤ •

أصيب بعدوى تشاؤمه وهو فى صباه لم تصقله الحياة بعد • وهـذا مايعترف به العقاد فيقول « كان المعرى رفيق صباى • عرفته منـذ عشرين سنة ، فلزمته وأقبلت على حديثه أتلقفه وأترنم به • وكان أشوق مايشوقنى منه ذلك السخط الذى تتضـح به دواوينه ، وذلك الترفع المشوب بمرارة النقمة والألم ، وتلك الثورة الساكتة والحرد الصـادق الذى لا يقبل التوبة • ثم مضت أيام وسنون بلوت فيها من آلام الحياة ماكنت أتخيله ، ورأيت من أوضاع النفوس ماكنت أتمثله ، فأصـبحت أحق بالسخط والتبرم ، وأولى بالثورة والتمرد ، وأقمن أن يزداد اعجابى بشـعر المعرى وأن تتوثق صداقتى له ، ولكن ماهكذا حدث كما كنت أقدر ، بل تغيرت وفتحت الكتاب الثانى من دروس الحياة على استطراد بعيد عن فحوى كتابها الأول • فأنا اليوم أجل المعرى ولكن لا أستشيره ، وأستمع لحديثه ولكن لا أصغى الى سخطه • واذا أصغيت فليس ذلك الاصغاء الطويل الذى عودته من قبل ، ولا ذلك الاقبال المطبوع الـذى لا كلفة فيه ولا تجمل • وانما هو اصغاء بالسمع دون القلب ، واقبـال فيه من الأدب أكثر مما فيه من الميل والرغبة وكثيرا ما ألتفت الى نفسى فجأة فاذا أنا متشاغل عن حديثه بأحاديث أخرى ماكانت تشغلنى عنه فيما مضى »(٤٣) •

فالعقاد فى هذا المقال يحدد الفترةالتى أعجب فيها بتشاؤم المعرى ، بل أصابته عدواه فصار متشائما مثله ، هذه الفترة كانت فى سـن الشباب ، أو قبل سن الرابعة والثلاثين التى كتب فيها مقاله هذا ولكنه فتح الكتاب الثانى من دروس الحياة ــ كما يقول ــ على اسـتطراد بعيد عن فحوى كتابها الأول فتخلص من ربقة التشاؤم ، واعتـدلت نظرته الى الحياة •

ويعلل العقاد نزوع الشباب الى السخط والتشاؤم بأن « الشباب

---

(٤٣) انظر مطالعات فى الكتب والحياة للعقاد ص٧٤ وانظر ايضا ماكتبه عن فترة يأسه فى آخر ساعة ٩/١٠/٥٧ •

هو سن الغنى فهو سن القلق ، وهو سن الحب فهو سن اللوعة • وهو سن الاقدام فهو سن الندم • والشباب سن الزهو والجمال فهو سن الدالة والتجنى ، وكأنما الشاب صبى الحياة المدلل الذى تحنقه الهفوة ولا يقنعه العطاء ولو كثر ، عودته الحياة الكرم فتعود الطمع وذهب يشكو كثيرا لأنه يطلب كثيرا • ولا عجب أن يتعاطف الشاكى والمتشائم ، ثم لا عجب أن يجد الفلاسفة المتشائمون معظم أنصارهم بين مراتع الشباب الخضراء لا فى قفار الشيخوخة الموحشة ••• فغير عجيب اذن أن يكثر دعاة التشاؤم فى أجمل أدوار العمر وأحفلها بمسرات الحياة • وغير عجيب أن ترى الناس يميلون الى الرضى والأنس بالحياة كلما طالت عشرتهم لها وريضت نفوسهم لمكارهها وطيباتها »[٤٤] •

ويعبر العقاد عن هذا التغير الذى طرأ على حياته ، من السخط الى الرضى ، ومن التشاؤم الى التفاؤل ، ومن الضيق بالحياة الى قبولها كما هى بمسراتها وأوضارها • فيقول من قصيدة « كنت قصرت »[٤٥] •

انى حسبت حياتى غير واحدة ... من التغير من حال الى حال
ان الحياة حياة كيفما اختلفت ... ألوانها من مسرات وأوجال
كم ذا أهبت بروحى أن تفارقنى ... ورحت أجفل منها أى اجفال
فالآن أنشد آلامى وأحمدها ... كيما أحس بروحى بين أوصالى

لقد تعدلت اذن نظرته الى الحياة ، ولم يعد متشائما ساخطا ، بل صار يؤمن بالحياة نعيمها وشقائها ، يقبلها بما فيها وبما تأتى به من مسرات وأوجال • يقول [٤٦] •

قالوا الحياة قشور ... قلنا فأين الصميم

---

(٤٤) انظر المطالعات ص٧٥ ، ٧٦ •
(٤٥) انظر ديوان العقاد ص١٢٢ وديوان من دواوين ص٢٧ •
(٤٦) انظر ديوان العقاد ص٥٣ وديوان من دواوين ص١٧ •

قالـوا شـقاء فقلنـا نعـم فأيـن النعيـم
ان الحيـاة حيـاة ففـارقوا أو أقيمـوا

ومما لاشك فيه أن فلسفة القوة التى اعتنقها العقاد كان لهـا أثر كبير فى تخلصه من هذه النزعة التشاؤمية السوداء ، التى هى ضـعف فى عرف فلاسفة القوة ، وعجز عن تجربة الحياة لاينبغى أن يتصف به الأقوياء ، وهو نفسه يؤكد ذلك فيقول : « ان النفوس التى تلقى الحياة بالوجوم والانقباض ، ولاتعرف فيها غير الشكوى والاشفاق ، انما هى نفوس عجزت عن تجربة الحياة ، وابتلاء مافيها من الخير والشر والفرح والحزن ، فقنعت منها بتلك الخشية الضعيفة التى تبدو للنظر القريب فى ثوب الرأفة والحنان ، وبتلك القشعريرة التى تسرى فى الجلد لأدنى الملامسة وأهون المقاومة[٤٧] .

فهو لم يعد يستسلم للمصائب والنكبات ، ولم يعد يشكو ويتوجع لشدة وقعها على نفسه . وانما أصبح يتحداها بعزيمة قوية وصـبر عظيم ، وجلد محمود . ويعبر عن هذه القوة فى تلقى المصائب فيقول[٤٨]

أواه من عبث الحياة وسوء ما يجنى الزمان وشر ما يتـوعد
لا أشتكيه وقد أمر فسـاغ لى ما لا يسـوغ وسرنى ما يكمـد
وجزعت حتى قيل جن من الأسى وصبرت حتى قيل صخر جلمد
أبدى التجلد والتجلد فى الأسى بعض الرياء ، وبعضه قد يحمد

وهكذا كانت فلسفة القوة عاملاً كبيرا فى انقاذه من ضعف السخط وعجز التشاؤم كما أنقذت « نيتشه » من تأثير تشاؤم « شوبنهور »[٤٩] وسخطه الذى كان قد سيطر عليه .

---

(٤٧) انظر مراجعات فى الآداب والفنون للعقاد ص١٨٧ .
(٤٨) انظر ديوان العقاد جـ١ ص١١٦ .
(٤٩) انظر « نيتشه » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص١٣ ومطالعـات فى الكتب والحياة للعقاد ص٧٦ .

وقد لاحظ ناقد من المحدثين هو مختار الوكيل[٥٠] هذا الاعتدال الذي صبغت به فلسفة حياة العقاد وهذا الرضى بالحياة والصبر على مكارهها ، بعكس ما كان عند صاحبه « شكرى » ، فكتب مقارنا بينهما يقول : « ظهر لنا من دراسة شكرى أنه شاعر متطير متشائم ، ينظر الى الحياة نظرة سوداء ، ويبرم بالدنيا والناس ، ويسخط على الوجود والعيش ، ويحب الموت ويود أن تنتهى حياته ويخلص من قيد البقاء الكريه • أما العقاد فساخط كذلك برم بالحياة ، ولكن سخطه وبرمه لايذهبان برشاده وهداه جميعا ، وانما هو يعلم أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، وهو يرى أن الصبر على مكاره العيش نوع من الفلسفة المحببة ، وله فى ذلك كله فلسفة هادئة رغم ثورتها الكبيرة الظاهرة ••• ولعل من أظهر الأدلة وأوضحها على صدق ماقلناه من أن فلسفة العقاد هادئة قانعة بالعيش على مضض — على نقيض فلسفة شكرى البرمة الساخطة — قصيدة العقاد الى عبد الرحمن شكرى وهو بالاسكندرية ، والتى جعل عنوانها « الى جار بحر الروم » فهو فى هذه القصيدة يحض شكرى على فك أغلال الزمان ، فى تفاؤل عجيب ويشكو اليه زمنه شكوى كلها اباء وعزة ورضى عن العيش وقنوع بما فى الحياة من جمال تزجيه الطبيعة الحسناء ، اسمعه يقول : [٥١] •

يا جار بحر الروم مالك صامتا ... هلا اقتديت بموجه المتجدد
غضبان من لؤم الحياة ، وانها ... أمة ولكن مالها من سيد
فليسلينك فى جوارك خضرم ... غضبان يقذف باللغام المزبد
انى ألب بموطن لو أنه ... قفر لأطربنى صفير الفدفد
تمضى الشهور وفى الجوانح لوعة ... تمشى على كبدى كحز المبرد

---

(٥٠) هو الأستاذ « مختار الوكيل » فى كتابه « رواد الشعر الحديث » ص٦٧ — ٦٨ ط سنة ١٩٣٤ • وللأستاذ أنيس المقدسى رأى مماثل لرأيه ذكره فى كتابه الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ج٢ ص٩٩ •

(٥١) انظر ديوان العقاد ج١ ص٦٥ •

أشكو الزمان الى القريض وتارة ... أشكو القريض الى الزمان المعتدى
فاكتب على هذا الزمان ذنوبه ... انا نؤجله الحساب الى الغد
واضحك فان قالوا تضاحك قانط ... فاضرب لهم مثل الغمام المرعد
تالله لو علموا لكان مكاننا ... فيهم أعز • وكيف علم المقتدى

فالطابع العام لفلسفة حياة العقاد هو الاعتدال ، فلا هو ساخط متشائم برم بالحياة كأبى العلاء المعرى أو شكرى • ولا هو متفائل كل التفاؤل أو منطلق يبغى التمتع بكل مافى الحياة من متع • وانما هو بين هذين يأخذ الحياة بخيرها وشرها ، ويقبلها بنعيمها وشقائها ويؤكد مذهبه هذا بقوله فى قصيدة « فلسفة حياة »(٥٢) •

زاهد الهند نعى الدنيا وصام ... أنا أنعاها ولكن لا أصوم
طامع الغرب رعى الدنيا وهام ... أنا أرعاها ولكن لا أهيم
بين هذين لنا حد قوام ... وليلم من كل حزب من يلوم

ونقول ان الاعتدال هو الطابع العام لفلسفة حياة العقاد ، لأن طور التشاؤم الذى تحدث عنه لايعدو أن يكون فترة قصيرة فى شبابه ما لبثت أن انقضت ، ولأن فلسفته المعتدلة هذه تبدو شواهدها مبكرة فى شعره ، وفى أول جزء أصدره من ديوانه كما نلاحظ فى بعض الأمثلة التى استشهدنا بها من شعره •

فلسفته الدينية :

ولا تكتمل لدينا فلسفة حياة العقاد دون أن نعرض الى فلسفته الدينية ، ولا أعنى بذلك بحث كل ما كتبه من موضوعات تتصل بالدين • بل أعنى استخلاص آرائه التى تقوم عليها عقيدته الدينية من خلال أبحاثه الكثيرة المتصلة بالدين ، ومن خلال شعره الذى يجمع هذه الآراء أو يعطينا صورة لها •

---

(٥٢) انظر ديوان « وحى الاربعين » للعقاد ص١٩ •

وفلسفته في هذه الناحية واضحة ، لأنها تقوم على ايمان بالله ايمانا صادقا لاشك فيه ، وكما يقول « أومن بالله وراثة وشعورا وبعد تفكير طويل ، فأما الوراثة فقد نشأت بين أبوين شديدين فى التدين أما الايمان بالشعور فذاك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن يلتقيان فى الحس والتصوير والشعور بالغيب ، وربما كان وعى الحياة شعبة من « وعى الكون » أو « الوعى الكونى »[٥٣] الذى يتعلق به كل شعور بعظمة العالم وعظمة خالق العالم ، والوعى الحيوى مصدر النفس ، والوعى الكونى مصدر الدين . أما الايمان بالله بعد تفكير طويل فخلاصته أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من كل تفسير يقول به الماديون »[٥٤] .

وهو يرى « أن الحس والعقل والوعى والبديهة جميعا تستقيم على سواء الخلق حين تستقيم على الايمان بالذات الالهية ، وأن هذا سواء الخلق حين تستقيم على الايمان بالذات الالهية ، وأن هذا الايمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم »[٥٥] .

فالايمان بالله عنده عقيدة راسخة وقضية مسلم بها لاشك فيها ، والله « موجود فى كل مكان كفيل أن يصل اليك اذا أنت لم تصل اليه ، وأن يعرف حقيقتك اذا عجزت أنت عن عرفان حقيقته »[٥٦] هذا هو المعنى الذى نجده فى الحديث الشريف « اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » . وما يقول به العقاد فى قصيدته « فلسفة حياة »[٥٧] .

---

(٥٣) انظر تفصيله لنظرية « الوعى الكونى » فى كتابه « الله » طبعة الهلال عدد ٤٢ سبتمبر سنة ١٩٥٤ .

(٥٤) انظر مجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٤٧ من مقال بعنوان « ايمانى » للعقاد .

(٥٦) انظر مقدمة قصيدة « فلسفة حياة » ص١٧ من ديوان وحى الأربعين للعقاد .

(٥٧) انظر القصيدة بديوان وحى الأربعين للعقاد ص٣٠ .

يعبد الأقوام ما يخشونه ... وأنا أعبد ما لست أخاف
ليس ينسى الله من ينسونه ... فعلام البحث فيه والخلاف
ان وصلتم أو وقفتم دونه ... لم يقف دون مقام أو مطاف

ويتبع ايمانه بالله ايمانه بالبعث والحياة الأخرى بعد الموت ، ويذكر رأيه باختصار فى قصيدة فلسفة حياة فيقول فى مقدمتها : « وأما مسألة الحياة بعد الموت فخلاصة القول أن خيال الانسان لن يحيط بوصف ، أو لن يصل فى شأنها الى وصف يستقر عليه — فهو لا يرضى أن تكون الحياة الأخرى كهذه الحياة الدنيا ، لأنه يطمح أبدا الى كمال بعد نقص ، وغبطة بعد ألم ، وهو لايرضى أن تكون الحياة الأخرى مبدلة مستحيلة ، لأنه متى تغير شعوره وتبدلت مداركه ومقاييس نظره ، أصبح مخلوقا آخر وأصبح النعيم الذى يرجوه كأنما هو نعيم مكتوب لانسان سواه ... فهو يجب أن يغير حياته ولا يجب أن يغيرها فى وقت واحد ! ... والخروج من هذه الحيرة لن يكون الا على حالة فوق مايعقل وفوق مايتخيل »[٥٨] ثم يعبر عن هذا الرأى فى القصيدة فيقول [٥٩] :

أيها السائل : ما بعد الممات ... يمم الصحراء وانظر قفرها
ما وراء القبر من قول الثقات ... حالة تحمد يوما سرها
لست بالراضى حياة كالحياة ... لا ولا ترضى حياة غيرها

فليس هناك فناء بعد الموت ، فمن العجب أن يفنى حى لا أن يحيا ميت لأن غاية الموت هى البقاء لا الفناء . يقول [٦٠] .

فيم عشنا وغاية العيش موت ؟ ... فيم متنا وغاية الموت بقيا ؟
أعجب الحالتين عندى حى ... سوف يفنى ، لا ميت سوف يحيا

---

(٥٨) المصدر السابق ص١٧ .
(٥٩) المصدر السابق ص١٩ .
(٦٠) انظر ديوان من دواوين للعقاد ص١٥ وبعد الأعاصير ص٢٣ .

وأغلب الظن أنه سوف يرقى الى درجة أعلى وأسمى بعد الموت لا أن يفنى كما يزعم الملحدون يقول : (٦١)

أنا شيء « فكيف أصبح »لاشيء اذا تـــم للحيـــاة مـداهـا
أغـــلب الظن أننى ســـوف أرقى غاية بعـــدها تفـــوق ذراها

الا أن العقاد « كان قد أصابته لفحة من الشك أواخر الحرب العالمية الأولى ، فنظم قصيدته المشهورة « ترجمة شيطان »(٦٢) . التى تلمح فيها غيمة هذا الشك وهى قصيدة طويلة تقع فى (٢٤٠) بيتا . ونذكر هنا تعليق المازنى عليها بقوله : « وقد كان الباعث على وضعها ما انتاب الشاعر فى أواخر الحرب وفى ابان الحوادث المصرية الأولى من الشك والغيظ رجا عنده كل قواعد الرأى ، وشوها كل حالات الوجود الانسانى، فوقر عنده أن الحياة كما قال سليمان الحكيم بعد تجربتها ، قبض الريح وباطل الأباطيل . ولكن هذه الغيمة انجلت ، فعاد الى رأيه الأول فى الحق والعدل ، معتقدا أن الحق كائن فى صميم الأشياء ، وأن الوجود والباطل نقيضان لايتفقان الا كما يتفق الوجود والعدم »(٦٣) .

فهى غيمة من الشك ما لبثت أن تقشعت ، وكان العقاد قد هم باحراق هذه القصيدة فمنعه « المازنى » وبعض الصحاب . وهذا دليل على عدم اقتناعه بما فيها من لمحات الشك التى لا تكاد تعطينا رأيـــا واضحا صريحا . وتجعلنا نعود الى آرائه التى عرفناها وأثبتناها ، خصوصا وأنه لايوجد فى بقية شعر العقاد مايعزز هذا الشك أو حتى يلمح لـــه .

---

(٦١) انظر ديوان من دواوين للعقاد ص١٤ وبعد الأعاصير ص٢٣ .

(٦٢) انظر القصيدة بديوان العقاد ج٣ ص٢٣٨ .

(٦٣) انظر « حصاد الهشيم » للمازنى ص٣٨ — ٣٩ .

ويكفى العقاد ماكتبه فى العبقريات الاسلامية أو فى الموضوعات المتصـــــلة بالدين من فلســـفية وتاريخية لتؤكد ايمانه وتثبت عقيدته الدينية تثبيتا قويا ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر عبقرية محمد وعبقرية الصديق وعبقرية عمر ، وحقائق الاسلام وأباطيل خصـــومه ، ومايقال عن الاسلام ، والتفكير فريضة اسلامية وكتابه « الله » .

فاذا فهمنا فلســـفته الدينية على هذا النحو نكون قد استوفينا فهمنا لفلسفة حياته فهما يمكننا من معرفة شـــخصيته على حقيقتها ، ويعيننا على اســـتجلاء الرؤى اذا ما قرأنا له شيئا من نتاجه الأدبى أو الفكرى.